تاريخ الدول السرياني

تأليف أبي الفرج الملطي (تابع)

قدم الأب اسحق ارملة السرياني

وكان صاحب ارضروم وهو ابن عم السلطان علاء الدين وصهره قد تحوّل عنه واتفق مع الخوارزميّين وشاركهم في القتال. فالقى السلطان القبض عليه واستأسره. ثم سار السلطان نفسه مع الأشرف الى ارضروم وحاصرها حصاراً شديداً فاستجلفه الاهالي ان لا يقتل واليهم المأسور لديه وسلموه المدينة. وكانت اخت صاحب ارضروم هناك وكان السلطان منذ امد طويل مغرماً بها يريد ان يتزوّجها واخوها يعارضها. فتزوّجها الآن وسُرَّ بها اكثر من سروره بما احرزه من الانتصار. غير انها لما طلبت اطلاق اخيها من قيوده سخط عليها وقتلها وأغرق اخاها في البحر.

وبعد انكسار الخوارزميّين سار الاشرف الى خلاط كي يرتق فتقها ويصلح أمرها وارسل معه السلطان الف فارس في هدايا وافرة وعاد هو الى بلده. اما جلال الدين خوارزمشاه فذهب بآله الى كوي باذربيجان وارسل تقيّ الدين اخا الاشرف مكبّلاً هديةً الى خليفة بغداد وعند فكّ قيوده واعادته مكرّماً الى الاشرف. ثم ارسل الاشرف سفيرًا الى خوارزمشاه يقول: انك جئت فاخربت بلادنا وقتلت ونهبتَ مع اننا لم نسيء اليك. فان كنت تروم الانتقام منا بسبب ما اخربه الحاجب عليّ من بلادك فان الحاجب المذكور قد قتل في الحرب ونال جزاء اعماله. والآن نسألك ان تتخلّى عن البلد الذي اخذته عنوةً وتتصالح معنا.

غير ان خوارزمشاه استخفّ به ولم يصالحه فتركه الاشرف وعاد الى بلاد ما بين النهرين. وكان الكامل في مصر. وبقي مجير الدين يعقوب اخو الأشرف مأسورًا عند خوارزمشاه.

وفي هذه السنة ارسل الاخوة الفرير الدواوية (١٦٣) والاسبتالية يطالبون

صاحب حماة بالوف الدنانير المترتبة عليه بثابة جزية . فرفض طلبهم مستخفًا بهم . فاحتشد خمسمائة فارس منهم والفان وسبعمائة راجل وزحفوا ليحتلوا البلد. وبرز تقيّ الدين اليهم وكسرهم .

وفي السنة ١٥٤٢ لليونان (١٢٣١ م) زحف التتر يتعقبون الخوارزميّين فانهزم خوارزمشاه الى اطراف سورية فادركوه في بلد آمد واتلفوا عساكره وفرّ هو الى احد جبال الصوفانيين فتمسك به الاكراد دون ان يعرفوه . وذكر بعضهم ان حافظ امتعته هو الذي قتل اما خوارزمشاه فقد لبس ثياب القتيل الصوفيّة وافلت وجعل يطوف البلاد مستترًا .

واقبلت شرذمة من التتر الى حصن زياد ووصلت الى الفرات بحدود ملطية ومرّت بسهل هتريط وانهزم الاهالي الى المدن العاصية في القلاع الحريزة ولم يحدث خراب كثير . وانقلب التتر الى اذربيجان وشهرزور واحتلّوهما واحتلوا بلاد الكرج كذلك . فسمع مظفّر الدين وخاف وارسل يستنجد بالخليفة فسيّر اليه جمال الدين قشتمور في جيش كثيف . اما البقية الباقية من الخوارزميّين وهي نحو عشرة آلاف فقد لاذوا بالسلطان علاء الدين صاحب بلاد الروم فاعطاهم بلادًا لمعيشتهم وظلّوا خاضعين له حتى وفاته .

وفي تلك الغضون اعتزم الخان بن جنكزخان ملك المغول ان يفتح بلاد الصين وهي الخطا . فسار التتر اولا بدءا الى مدينة خوجا بنو بقسين وهي على شط نهر قرامودان وفيها عشرة آلاف مقاتل وحاصروها (٤٦٤) اربعين يومًا فعجز اهاليها وسار بعض اقطابها يطلبون الامان من الخان . اما المحاربون فقد ركبوا السفن جميعًا وهربوا في النهر . واحتلّ الخان المدينة ولم يؤذِ احدًا . ومن هناك دخلوا بلاد الخطا فجيّش التون خان اعني ملك الذهب مائة الف من الشجعان وانفدهم للقاء التتر واحاطوا بهم احاطة الخاتم بالاصبع . ولما ان شاهد الخان بطشهم حتى تذرّع بوسيلة اخرى وهي انه أمر السحرة والرقائين ليعزوا حجر المطر فابرزوه وانجزوا اسرارهم ثلاثة ايام وثلاث ليالٍ وهبطت على الصينيين امطار غزيرة وثلوج قاسية تبعها برد شديد في شهر تموز . وعند ذلك وثبوا كالذئاب تنهش الغنم واوقعوا بعسكر الخطا وكسروهم شرّ كسرة. وانهزم التون خان الى عاصمته واجتمع بنسائه واولاده واخوته واقاربه جميعًا في

بلاطه . وأمر بيده قاطبة فكزموا الحطب اكواماً اكوماً واضرموا فيها النيران فاحترق هو وكل ذويه. ودخلت عساكر المغول مدينة نامكينك ونهبوها ونهبوا غيرها من المدن وقتلوا خلقاً كثيراً وأسروا من البنين والبنات المستارين بالجمال عدداً وافراً . ورجع الخان في غاية الابتهاج ووصل الى جبال قراقورم وابتنى مدينة سماها اردوباليق اعني مدينة المعسكر وهي تعرف اليوم بقراقورم واستحضر اليها صنّاعين واهالي من بلاد الخطا والعرب . وبينما كان مسروراً بتلك الغلبة توفي فتولى اخوه الصغير وكان احب الاخوة اليه (٤٦٥) فحزن عليه حزناً شديداً وأمر ان تتولى تدبير ولايته زوجتهُ سرقوتني باجي وهي ابنة اخي الملك يوحنا . وكان لها اربعة بنين كبار اوّلهم : مونكا الذي صار فيما بعد ملكاً . ثانيهم قوبلاي ثالثهم هولاكو رابعهم اريغ بوكا . فأحسنت تربيتهم وادهشت جميع اولاد الملوك بسياستها . ومائلت هيلانة الملكة بايمانها المسيحيّ القويم وعنها قال احد الشعراء .

فلو كان النساء كمثل هذه لفضلت النساء على الرجال

وتوفّي كذلك توشي ابن جنكزخان الاكبر وخلّف سبعة بنين كبار وهم: تمثل . هردو . باتو . سيبقان . تنكوت . بَرْكه . بركجار . وقد انتقى الخان ثانيهم وولاه بلاد الصقالبة الشمالية واللان والروس والبلغار وجعل مخيمه على شاطئ نهر ايتيل . ولما سار في طريق الشمال من بلاد الكرج الى بلاد البلغار والسكوتيين اجهز على اهاليها بالسيف والغى ممالكها . واصدر الخان امره بان تُقطع الأذن اليسرى من كل قتيل بلغاريّ وروسيّ وأُحصي عددها فكان مائتين وسبعين الف اذن . وتجهز الخان للدخول الى قسطنطينية من ناحية بلغاريه . فبلغ ذلك ملوك الفرنج فاحتشدوا ولاقوه وكسروه وهزموه ولم يَعُد التتر يتعرّضون لبلاد الفرنج بل ظلّوا مقيمين في سهل القوقاس .

واحبّ سرتاق بن باتو الديانة المسيحية واعتمد وتعلّم الكتابة والقراءة ورُقّي الى الرتبة الشماسيّة . ومات في ذهابه لخدمة منكوخان على ما يظهر .

وفي السنة (٤٦٦) ١٥٤٣ لليونان (١٢٣٢ م) زحف التتر كذلك وغزوا بعض الاماكن وعادوا الى بلاد العجم . وعجز السلطان علاء الدين عن مناوشتهم وقرّر لهم الجزية وصالحهم . ولما استراح من همّهم انتزع خلاط من الاشرف

واحتلّ حصوناً كثيرة من ارمينية ومدينة سرماري . وانتزع الكامل صاحب مصر مدينة آمد من صاحبها واعطاه قرى لمعيشته .

وفي السنة ٦٣٠ للعرب (١٢٣٢ م) مات الطبيب المهذب المدعوّ دكوار الدمشقيّ . وكان في اوّل امره يجلس في السوق ويطبّب المرضى بالاجرة .

ثم خدم اجد ابناء العادل واساء كثيراً الى الاطباء اقرانه وكفّهم عن الخدمة . وكان مكّاراً شتّاماً شرهاً نهماً واصابه في آخر أيامه داء عضال في لسانه الذي كان يؤذي به اقرانه وأمسى اخرس لا يتكلّم . وتفاقم الداء شيئاً فشيئاً حتى قتله . ولم يخلّف وارثاً وكتب في وصيّته ان تحوّل داره الى مدرسة لمن يعلّم ويتعلّم الطبّ ووضع فيه كتبه كلّها . وبلغ به اللوم مبلغه حتى حتّم ان يدرس فيها المسلمون وحدهم دون اليهود والنصارى . وما زال هذا القانون جارياً في دمشق حتى اليوم . وتلامذة الطبّ يقرأون على اليهود والنصارى خارجاً عن تلك المدرسة .

وفي رمضان ٦٣٠ للعرب (١٢٣٢ م) مات مظفّر الدين كوكبري بن زين الدين علي كوجك صاحب اربيل ونقل الى مكة ودُفن هناك . وبعث اليها الخليفة جنوداً مع طاهر الدين ابي علي عارض والقائد بها الدين بنغوش ولكنّ الاهالي قاوموهما فاقبل شرف الدين شرابي وحاصرها (٤٦٧) واحرق باب عين كاوا ودخل المدينة ونهبها وما عتم ان احتلّ البغداديون قلعتها وتولّاها شمس الدين باتكين وعارض الغش وتولّى المدينة انسان شريف يقال له ابو المعالي محمد بن نصر بن صلايا والمشرّف بن صدقة .

بدء مملكة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل

وفي السنة ١٥٤٤ لليونان (١٢٣٣م) كتب الخليفة فرماناً لبدر الدين صاحب الموصل وخُطب له على المنابر بالسلطنة . وكان الفتى ناصر الدين محمود بن القاهر بن نور الدين قد مات . وقد تشكّى بنو العادل من السلطان علاء الدين لانه انتزع خلاط منهم . وحشدوا حشداً كبيراً من مصر الى حلب واتفق معهم صاحب حصن زياد وصاحب ماردين وصاحب الموصل والملك الافضل بن صلاح الدين صاحب سميساط وجمهور من المدنيين والتغلبيين . وحشد السلطان

كذلك جمهور من عرب وتركمان . ثم سكروا وخوارزم اوفى عددهم على المائة الف كلهم من مشاهير الجنود وزحف عام ١٥٤٥ لليونان (١٢٣٤ م) الى املستين حيث ازمع المصريون واصحابهم ان يقيموا. وارسل هولاء الجواسيس فتحقق لهم انهم عاجزون عن مبارزة السلطان فساروا الى حصن منصور واتلفوا ضواحيها جملة. ثم تفرقوا شذر مذر وعادوا الى بلدهم .

اما السلطان فاقبل الى ملطية في جيش ضخم وعبر الفرات ووصل الى حصن زياد واحتل المدينة حالاً وغزاها . اما صاحبها فانهزم الى القلعة في ستة آلاف من الفرسان المصريين وصلوا لينجدوه. فاقام السلطان المنجنيقات وحاصرها وضايقهم حرباً وجوعاً وعطشاً فطلبوا الامان . اما السلطان فقد ارسل الى مصر جميع المصريين الذين كانوا مع شمس الدين (٤٦٨) صواب حاجب الكامل الكبير . وارسل صاحب حصن زياد مع اثقاله ونسائه الى ساحل البحر. فاقام هناك نحو ثلاث سنوات حتى أهلكه السلطان خفية وعزز القلعة والمدينة وعمرها . ووجه جيشاً الى سيباط افسد ضاحيتها وتعذر عليه احتلالها بسبب الشتاء . فتركها وسار الى انطاكية بساحل البحر ليشتي فيها كعادته . ولما اقبل الصيف حشد الجنود من امم مختلفة بلغ عددهم مائة الف فارس وهيأهم ليزحفوا الى آمد . واذ ذاك بلغه ان الكامل مضطرب لان ابنه الذي تولى اليمن مرق من طاعته . ولذا اغمض السلطان عن الزحف الى آمد ولا سيما لانها حصينة جداً لا يتيسر فتحها في زمن قليل .

وفي حزيران ١٥٤٦ لليونان (١٢٣٥م) وجه السلطان جنوده الى الرها وملكها عنوة وكان الرهاويون يقاتلون قتالاً شديداً من الاسوار . ثم سار بعضهم الى سروج واحتلوها ووصلوا الى الرقة كذلك واحتلوها واتلفوها ونهبوها نهباً ذريعاً . وخاف الحرانيون وحملوا اليه المفاتيح وهو في ملطية فرضي عنهم وردهم الى بلدهم مكرمين . اما الرهاويون فعاندوه بشدة وسخروا به فسخط عليهم ووثب اليهم بذاته وافرغ جنوده كل قواهم واتلفوا المدينة بما فتحوا من الثغور وبالسلالم التي اقاموها على الاسوار حتى دخلوها وسبوا ونهبوا دور الزعماء. ونزعوا ثياب الرجال والنساء. ونهبوا حلل الكنائس النفيسة وآنية القدس وأجلوا الفتيان والفتيات واخرجوهم خارج المدينة وأجلسوهم على الربل ما بين الخيام

فتحهم سموم تموز بحرّها (٤٦٩) وسقيا الفرات والمحاربين وعددهم الفان عراةً الى بلاد الروم الداخليّة . وعثروا في القلعة على كمّية وافرة من الذهب والفضّة والسروج والالجمة وعُدَد الحرب مما تركه الكامل وهو عائد من ابلستين . وبعد هذا تولّى السلطان تحصين المدينة واقام بها محاربين وبنائين ونجّارين . وصنع مثل ذلك في حرّان وعاد الى بلده . امّا الكامل فلمّا سمع بما حدث من الاهوال في الرها ارتحل من مصر في جيش كثيف واقبل اليها . ذلك بعد اربعة اشهر لانزاح السلطان وجنوده عنها . وقوّض بشدّة برج قلعتها الضخم ورحّل على الجمال جميع الزعماء والمحاربين والصنّاع وارسلهم الى مصر .

وفي هذه السنة نقصت الغلّة في بلاد الروم وما بين النهرين ونشفت الكروم ويبست الاشجار بسبب الشتاء الشديد . فمن تشرين الثاني حتى نصف شباط جمد الفرات ولم تمطر في الربيع .

وفي السنة ١٥٤٧ لليونان (١٢٣٦ م) وجّه السلطان علاء الدين جيوشا وافرة العدد الى آمد وحاصروها اربعة اشهر فامتنعت عليهم فنهبوا ضواحيها واخربوها وانقلبوا .

وفي السنة ٦٣٣ للعرب (١٢٣٥) سار الملك الناصر داود بن المعظّم بن العادل صاحب الكرك الى زيارة خليفة بغداد ليرفع الشكوى على عمّيه الكامل والاشرف اللذين اقتصا منه دمشق . وفي السنة عينها سار كذلك الى بغداد ركن الدين الملك الصالح اسمعيل بن بدر الدين صاحب الموصل ليزور الخليفة .

وفي تلك الفصول وصل التتر الى اربيل وعبروا الى بلد نينوى ونزلوا على ساقية قرية كرمليس فانهزم اهلها الى كنيستها فحاصرها التتر وقعد أميران منهم على بابيها فالواحد أذن في الخروج للذين خرجوا من بابه . ومن كرمليس سار التتر الى سنجار وانقضّوا على قافلة كبيرة من (٤٧٠) التجّار المسافرين الى سوريّة وقتلوهم قاطبةً .

وفي السنة ١٥٤٨ لليونان (١٢٣٧ م) حشد السلطان علاء الدين كذلك حشدًا غفيرًا من معدّيين وخوارزميّين وعونيّين ويونان وفرنج وارمن وكرج وأعدّهم ليزحفوا الى آمد . وكان يومئذٍ عيد العرب فصنع وليمة فاخرة لجميع الاقطاب وفيما كانوا يأكلون ويشربون ويتنعّمون باشكال الاغاني والسلطان

مستو على عرش عالٍ مبتهجاً برؤيتهم متخطرفاً شعر بألم في احشائه وخرج الى المرحاض وجرى منه دم غزير وقضى ليلته ونهاره متقلباً في اشدّ الاوجاع حتى وافاه الاجل يوم الاثنين اول حزيران ١٥٤٨ لليونان (١٢٣٧ م) واوّل شوّال ٦٣٤ للعرب .

ومات في هذه السنة كذلك الملك العزيز صاحب حلب وخلفه ابنه الملك الناصر صلاح الدين وقد قتله التتر في ايامنا . وفيها كذلك مات المحسن بن صلاح الدين الاكبر في حلب .

وفي شوال تلك السنة زحف التتر الى اربيل ثانيةً وحطّوا عند نهر الزاب الاسفل فانهزم الاربيليّون عراةً الى القلعة واحتلّ التتر البيوت وأخذوا غنائم وافرة واحرقوا اغلب الدور . وحاصروا القلعة نحو اربعين يوماً فدفع لهم أصحابها مالاً جزيلاً قبضوه وانقلبوا عائدين .

وكان السلطان علاء الدين كيقباد السابق الذكر ممتازاً ما بين ملوك زمانه بمنظره المخيف وذكائه المفرط وشخصه النقيّ المنزّه عن كل الاهواء الرديئة خلافاً لملوك العرب المعتادين الانغماس فيها . وكان المجرّمون يهابونه جدّاً اذ كان صارماً في احكامه . وقد اخضع لسلطانه مدناً واصقاعاً عديدة . وساعة وفاته عند نصف النهار اجمع ارباب الدولة على الخطبة لابنه غياث الدين كيكسرو (١٢٧١) وادخلوه الى مدينة قيسارية وحالفوه وأجلسوه على عرش ابيه ونادوا به سلطاناً وابتهج الاهالي جميعاً به . فامر باطلاق جميع الاسرى المسجونين في بلاده . وأطلق كذلك الاسرى في مصر بموت من استأسرهم . وأحصي عددهم فكان اثني عشر الفاً ممن نجوا من الضيق .

واراد السلطان الجديد ان يقبض على زعماء الخوارزميّين خيفة ان يتمرّدوا عليه فقبض على غاير خان احدهم وانهزم بقيّتهم وجعلوا يعيثون في كل بلد حتى وصلوا الى ملطية وأوقعوا سيف الدولة السوباشي وعبروا الفرات راجلين عند حصن مسارة . وعند بلوغهم الى حدود حصن زياد بجانب بلدة كربيزاج لاقاهم عساكر تلك الاطراف وانكسروا تجاههم وقُتل بيرامبز صاحب حصن زياد . واغاروا على بلد سيباط وغزوه ثم انحدروا الى بلد سوبرك وحاميتا واستقرّوا هناك نحو ثلاث سنوات يغزون الضواحي . ثم ساروا وادّوا الطاعة

لصاحب حلب الملك الناصر وهو فتى . فاخذهم الرها وحران وسائر مدن ما بين النهرين واستراحت الارض منهم .

اما السلطان غياث الدين الجديد فقد طلب ابنة ملكة الكرج وتزوجها وأحبها حباً مفرطاً واصبح على مثال الصبيان منهمكاً في الشرب والاكل ومداعبة الطيور والحيوانات . وترك سياسة المملكة في ايدي عبيده فصار كل منهم يعمل ما شاء . وكانت الملكة الكرجيّة نصرانيّة وقد حضر معها يوم عرسها الجاثليق والاساقفة والكهنة والاكليرس واخوها داود الصغير صاحب الكرج الداخليّة . غير انها جحدت بعد قليل ايمانها وأسلمت . وقبض على داود اخيها وعلى الجاثليق وسجنا في احدى القلاع وظلّا (١٧٢) هناك حتى اقبل التتر وفتحوا تلك القلعة واطلقوهما .

وفي بدء السنة ٦٣٥ للعرب (١٢٣٧ م) مات الملك الاشرف عيسى بن العادل بن ايوب في دمشق بالمثانة السئين . وكان جوّاداً كريماً مقبلاً على التمتع بالدنيا ولذاتها يزجي اوقاته برفاهية من العيش .

وفي السنة ١٥٤٩ لليونان (١٢٣٨ م) زحف التتر تكراراً الى اربيل وغزوا واخربوا . ووصلوا الى حدود بغداد الى موضع يسمّى زنكاباذ وغزوه. ووصل بعضهم الى سرّ من رأى وفتكوا باهاليها . فخرج اليهم مجاهد الدين الدويدار وشرف الدين اقبال الشرابيّ في عساكرهما . فبارزا التتر وهزماهم وخافا من عودتهم فنصبا المنجنيقات على اسوار بغداد .

وفي تلك السنة هرب الملك الفائز يعقوب من وجه اخيه الملك الكامل صاحب مصر الى بغداد وأراد ان يقيم في خدمة الخليفة . وما عتم ان مات الملك المذكور ودفن في دمشق وكان رجلاً داهية مهيباً وبلغ السبعين من سنيه وخلفه ابنه الملك العادل باسم جدّه واقام في مصر . اما الملك الصالح اخو الكامل فملك سورية وقوي امره بالخوارزميّين واضاف الخابور الى بلادهم . وكان الملك الناصر داود ابن اخيه صاحب الكرك سابقاً يحاول احتلال تلك البلاد ولكن الدهر عانده . وكان عالماً بارعاً بالعلوم الفلسفيّة . ويُحكى انه قصد شمس الدين كسروشاي الفيلسوف في دمشق وكان كلّما ذهب ليدرس عليه الحذر من حصانه على مسافة بعيدة وترك هناك عبيده وحمل كتابه تحت

ابطاله ودخل مدرسة الفيلسوف يضالع ويتعلم ولم يدع معلمه ان يتخفى له .

وفي تلك السنة وثب الاسمعيليون الى بدر الدين صاحب الموصل ولكنه لم يصب بضرر . (٤٧٣) وفي ذي القعدة من تلك السنة انقلب التتر ثانية الى حدود بغداد ووصلوا الى خانقين فخرج اليهم الجيش البغدادي وبارزهم فانكسر ولم يفلت منه الا ثلاثة من الكبار وهلك البقية بفم السيف . واحتوى التتر على غنيمة وافرة وانطلقوا .

وفي السنة ١٥٥٠ لليونان (١٢٣٩ م) وهي السنة ٦٣٦ للعرب فاض نهر بغداد واخرب دورًا كثيرة واغرق سفينتين هلك فيها زهاء خمسين نسمة . ولم يحدث في السنة التالية شيء يستحق الذكر في البلاد المجاورة لنا .

وفي حزيران ١٥٥١ لليونان (١٢٤٠ م) زحف التتر وغزوا من بلاد الكرج حتى حدود ارضروم . واحتشد جنود بلاد الروم وزحفوا الى ارمينية ليصدوا التتر عن التوغل في بلادهم . فسمع هولاء وتركوا وانقلبوا الى بلاد سقوتية . وظل جنود بلاد الروم هناك حتى الشتاء ثم عادوا الى بلدهم .

وفي تلك السنة توجه المسلمون من بلاد الروم التاج بلغاوي مركب الدرياق بثابة سفير الى بغداد ومات هناك في السن الثمين .

وفي خريف السنة ١٥٥٢ لليونان (١٢٤١ م) وهي السنة ٦٣٨ للعرب ظهرت بدعة مناقضة لدين العرب . ذلك ان رجلًا تركمانيًا شيخًا ناسكًا يقال له بابا ظهر ببلد اماسيا ادعى النبوة وزعم انه هو رسول الله حقًا . وان محمدًا كان كذابًا لا رسولًا . وتبعه جمهور غفير من التركمان استغواهم بما كان يُظهره لهم من الحيل والمخارق . ووجه الشيخ اسحق تلميذه الى بلد حصن منصور وهو آخر حدود بلاد الروم ليدعو التركمان الى المصير اليه . وقد استمال الكثيرين الى محبة معلمه . واعدّ له عُدَدًا حربيّة وانضمّ اليه جميع الفلاحين التركمان وباعوا حميرهم وثيرانهم واغنامهم واشتروا خيلًا وركبوا (٤٧٤) ... وغزوا بلد حصن منصور وجرجر وكاختين وفتكوا بكلّ من لم يُقرّ بان بابا هو رسول الله ونبيّ .

على ان زعيم ملطية حشد خمسمائة فارس واخذ لنجدته خمسين راجلًا من المحنكين بضرب السهام من دير مار برصوما وزحف اليهم فانكسر ولم يفلت من اصحابه الا القليلون . فتقوى التركمان جدًا وتبعتهم جماهير غفيرة وزحفوا

ى بلستين وتعب ... ايزورو لشيخ بابا زعيمهم . غير ان رعماء بلاد الروم كفروا لذلك الشيخ وقبضوا عليه وخنقوه . ولمّا وصل اسحق تلميذه في اصحابه ولم يجدوه اذاعوا بانه صعد الى السما. ليأتي بملائكة لنجدته وجعلوا يحاصرون اماسيا حصارا شديدًا . فاحتشد نحو ستين الف فارس من اصحاب السلطان غياث الدين ولكنهم لم يجسروا ان ينازلوا التركمان وهم ستة آلاف لا غير حتى اقبل الف فارس من الفرنج كانوا لدى السلطان وتشدّدوا وصرفوا باسنانهم وصنعوا اشارة الصليب على وجوههم ووثبوا الى اولئك الطغاة وشتّتوهم . وبعد هذا انضمّ اليهم العرب واحاطوا بالتركمان احاطة الهالة وقتلوهم طرًّا بحدّ السيف ولم يتركوا منهم رجلًا ولا امرأةً ولا ولدًا ولا حيوانًا حيًّا . وهكذا قُضي على تلك البدعة .

وفي هذه السنة احتشد عساكر بلاد الروم واقاموا زعيمًا لهم اسمه سيفان سوباشي صاحب حصن زياد الذي خلف بيرامير المقتول وزحفوا الى آمد وحاصروها وكان صاحبها ابن الكامل صاحب مصر واتّفقوا سرًّا مع الحرّاس ووعدوهم بالجزيل فسلّموهم البلد . وكان معهم بعض الحلبيّين وافوا لنجدتهم (٤٧٥) . وبعد ما احتلّوا آمد ساروا الى ميافرقين ليحتلّوها كذلك . لكن الملك غازي اخا الكامل استنجد بالخوارزميّين الذين في ما بين النهرين وأغار على أعدائه واغمض الحلبيّون عن مبارزته لكونه أخا مولاتهم امّ الملك الظاهر والد الملك الناصر صاحب حلب .

وبعد ما احتلّ سيفان آمد ورده الامر من السلطان ليزحف الى لدضروم ويقيم بها ويحميها من قوة التتر . ولما وصل اليها اقبل جرماغون نوين في جيش جرّار من التتر وملك تلك المدينة الحصينة في ايام وجيزة وقتل رجالها ونساءها وأبقى على فتيانها وفتياتها واتخذهم عبيدًا . وفتك كذلك بسيفان وابنه الشابّ وتركهما قاعًا صفصفًا وارتحل .

وفي القابل اعني السنة ١٥٥٣ لليونان (١٢٤٢ م) وصل التتر الى حصن زياد ونهبوا كلّ ما وجدوا وانقلبوا الى بلاد العجم .

وفي السنة ١٥٥٤ لليونان (١٢٤٣ م) حشد السلطان غياث الدين جيوشًا كثيفة واتخذ فرسانًا من حلب ومن اليونان والفرنج والمعدّيين ودفع لهم ذهبًا .

ووعده صاحب حمص وملك غازي صاحب ميافرقين بالمساعدة ولكنهما لم يبرّا بوعدهما. وجاء اليه البارون قسطنطين ابن هيتوم ملك الارمن الى قيسارية فرحّب به واجزل له العطا. ووعده قسطنطين بان يحشد جيش الارمن ويأتي الى نجدته. ثم ارتحل السلطان نحو سبسطية وزحف التتر الى ضواحي ارزنجان. فسار السلطان والتقى الجيشان بموضع يُسمّى كوساذاغ اعني الجبل الاسود. غير ان جيش السلطان عاد القهقرى منذ المعركة الاولى ولم يتمكن من الوقوف تجاه التتر فانهزم وترك سلطانه وحده. فهبت السلطان (٤٧٦) واخذ امرأته وابناءه وسار الى انقرة وتحصّن بها. ولما رأى التتر ان العدوّ قد انهزم دون قتال وترك خيامه على ما هي واختفى ظنّوا ذلك مكيدةً وانه قد حاد عنهم ليكمن لهم فاقاموا يوماً وبعثوا الجواسيس واستثبتوا الحقيقة ثم تشمروا ودخلوا تلك الخيام وابتزّوا كلّ ما بها. وانتشروا في بلاد الروم ووصلوا الى سبسطية فسلّم اصحابها ودفعوا ذهباً وافرًا وانقذوا نفوسهم من القتل وابناءهم وبناتهم من العبودية. ودخل التتر المدينة وافرغوا الخزائن الملكيّة واحتووا على كل ما طاب لهم واحرقوا آلات الحرب وهدموا من الاسوار نحو اربع اذرع على مدارها.

وانتهى زعيم آخر تتريّ الى قيسارية وأبى اهاليها تسليمها فاجتمعوا قاطبةً وثقبوا سورها بالمنجنيقات ودخلوها وافرغوا الخزائن الملكية واحرقوا الدور الفخمة ونكّلوا بالزعماء والاحرار وجعلوا يطعنونهم بالسيوف حتى انتزعوا كلّ ما لهم. ثم قتلوا ربوات كثيرة واستاقوا الصبيان والصبايا سبياً. اما ام السلطان فلمّا سمعت خبر النكبة اخذت ابنتها اخت السلطان وعبيدها وجواريها وكنوزها وسارت الى قيليقية ولاذت بالبارون قسطنطين ابي الملك هيتوم الذي وعد السلطان بالنجدة واستخفّ به منتظرًا النتيجة. وما ان عرف التتر بانهزام الملكة اليه حتى ارسلوا سفيرًا الى بالي ابي البارون يطلبونها وذكر بعضهم ان بالي عينه تزلّفًا الى التتر أخبرهم بان الملكة عنده وهو مستعدّ ليسلّمها لهم. فلمّا وصل السفير سلّمها اليه. وقد استفظع الملوك والخاصة والعامّة هذا العمل المنكر وأبدوا استياءهم من الارمن. هكذا استاق التتر تلك الملكة وما برحت مقيمة عندهم حتى اليوم (٤٧٧) مستعبدةً.

وفي تلك الغضون زحف تركمان ابلستين الى ديرنا المجيد المعروف بدير البارد وفتكوا بخمسة عشر راهباً اغلبهم من جهابذة العلما. والشمامسة والنساك. ولما عوّل اولئك الملاعين على الهزيمة باغتهم التتر وفتكوا بهم قاطبةً . هكذا انتقم منهم العدل بعد ثلاثة ايام ورجع كيدهم بنحرهم .

ولما سمع اهل ملطية بانكسار السلطان قصد السوباشي رشيد الدين في بعض اهل البلاط ليلًا الخزانة الملكيّة واقتسموا ما بينهم كلّ ما رأوه من ذهب وفضّة وفتحوا الابواب وفرّوا الى حلب . وانهزم مثلهم زعما. المدينة المشاهير ولا سيما المسيحيّون الذين امكنهم الهرب . ويوصولهم الى جبل الجوز على مسافة يوم من المدينة ادركهم فريق من التتر وقضى على اغلبهم واستاقوا البنين والبنات وأفلت القليلون وعادوا الى المدينة عراةً حفاةً . امّا سائر الاهالي من بزّازين وحيّاك وغيرهم فلما شاهدوا الاماثل والزعما. قد تركوا المدينة وانهزموا اجتمع العرب والمسيحيّون بطرانها السيّد ديونيسيوس عنجور الذي صار فيما بعد بطريركًا (١٢٥٢—١٢٦١)والتمسوا منه ان يبذل الجهد في حراستها لانه كان متيقّظًا حريصاً . وتحالف العرب والنصارى وجعلوا يطوفون طول الليل على الاسوار بالمناوبة ويجلسون مدة النهار على باب المدينة . ولم يكونوا يفتحون الّا باب الوئيس او باب البلاط . واستقامت المدينة في وجل وخوف زهاء شهرين حتى انكشف التتر ولم يتعرّضوا بحوله تعالى الّا للذين خرجوا منها منهزمين الى باب الجوز .

وانقلب التتر الى ارزنجان وطلبوا الاموال من زعمائها فلم (٤٧٨) يذعنوا لهم فسخطوا واقاموا عليها المنجنيقات وقوّضوا بعض اسوارها ودخلوا فنهبوها وقتلوا اهاليها واخربوها تماماً . اما السلطان غياث الدين فقد وجّه اليهم الوفود وطلب الأمان فصالحوه على مالٍ وخيل ومواشٍ وعبيد . وفي تلك السنة وهي السنة ٦٤٠ للعرب (١٢٤٢ م) مات الخليفة المستنصر .

بعد المستنصر المستعصم ابنهُ

تولّى ستّ عشرة سنة . وكان عقله عقل الصبيان لا يميّز الخير من الشرّ . اسرف زمانه بلعب الحمام والاتيا. بالطيور . وكان اذا قيل له ان التتر

متأهبون ليكبسوا بغداد كبسهم لسائر المدن الشهيرة في العجم يقول لهم : ان بغداد هي تختنا ولن يدخلوها ما لم نأذن لهم . وهكذا ازال الله تعالى الدولة العباسيّة في عهده .

وفي السنة ١٥٥٥ لليونان (١٢٤٤م) أقبل يساور احد زعماء التتر في الصيف الى ميافرقين وماردين وازها وعبر الفرات الى حيلان بجوار حلب ولم يدخلها لان حوافر خيل عسكره تعطّلت بسبب يبوسة الارض والحرّ وبعدما غزا تلك البلاد أرسل الى صاحب حلب يطلب مالاً فارسل اليه كلّ ما طلب . ورجع من هناك وزحف الى ملطية وأذن الغلال والكروم والنحل . وفتك بكل من لقيه في طريقه . وارسل يتهدّد رشيد الدين والي المدينة وكان قد رجع من حلب فجمع كمّية وافرة من الدراهم والدنانير والحلى واواني الذهب والفضّة ما قدره اربعون الف دينار ذهباً . وابتزّ كذلك آنية القدس من كؤوس واطباق ومباخر وقناديل وصناديق قدّيسين اخرجها من (٤٧٩) خزانة الكنيسة الكبرى وبعث بها اليه فاحتوى على ذلك كله وانقلب الى فارس .

وبعد ذهاب التتر حدث في ملطية وضواحيها غلاء ووباء وكثر الفقراء وماتوا موت الحيوانات في الشوارع . وعرض الكثيرون ابناءهم وبناتهم للبيع فلم يشترهم احد .

واشتهر عندئذ في ملطية عيسى الطبيب الرهاويّ تلميذ الطبيب حسنون وانتقل الى قيليقية وخدم ملكها وشاد في سيس كنيسة بديعة باسم مار برصوما .

وفي السنة ١٥٥٦ لليونان (١٢٤٥ م) زحف التتر الى بغداد فقاومهم الشعب كله وردّهم فاوغين . وثار في السنة عينها السلطان غياث الدين فارسل جيوشاً كثيفة ليخربوا قيليقية انتقاماً من صاحبها الذي سلّم امّه واخته الى التتر . فزحفوا الى طرسوس وحاصروها حصاراً شديداً وكان فيها يوم ذاك بالي ابو الملك هيتوم والقنطسطيل ابنه الكبير . فقاوموا تلك الجيوش بشدة يساعدهم كثير من الفرنج الذين عندهم . وضاقت عليهم امطار غزيرة فتضايقوا جداً وتعذّر عليهم الانتقال الى مكان آخر وانقطع عن خيلهم العلف بسبب ما حدث هناك من الاوحال التي كادت تبتلع الخيل وركّابها معاً . وفيما كانوا متقلّبين في ذلك الضيم وردهم نبأ موت السلطان فانفرج غمهم وتركوا البلد وانصرفوا قبل

وصول الخبر الى الارمن . وكانت وفاة السلطان في الخريف بعد السنة ١٥٥٧ لليونان (١٢٤٦ م) وخلف ثلاثة بنين صغار وهم : عز الدين وركن الدين وعلاء الدين . وبايع الاقطاب عز الدين كبيرهم وسموه (٤٨٠) السلطان كيكاوس . واقبل اذ ذاك سفراء المغول يسألونه ليسير لزيارة الخان فتمثل محتجاً بخوفه من اليونان والارمن لئلا يحتلوا بلده في غيابه . وانتهى ذلك بارساله اخاه ركن الدين بدلاً منه ووعدهم بالذهاب اليه في فرصة اخرى .

خلافة كيوك خان لابيه الخان

ومرض آنئذٍ الخان وارسل الوفود في طلب ابنه كيوك ليخلفه في المملكة بعد وفاته . ولما ازمع القدوم وكاد يصل مات الخان ولم يشاهده . وكانت توركينا الملكة امرأته والدة كيوك ذات دهاء حكيمة فاتفق جغاتاي وباقي اولاد الملوك على ان تتصرف في تدبير المملكة ريثما يجتمعون كافةً ويتشاورون . فارسلوا الوفود وطلبوهم فاجتمعوا في ايام الربيع . اذ اقبل من المشرق كوتان واوتكين اخو جنكزخان والشاتي . وجاء من المغرب قراموري وبايدار وتوركان ابناء جغاتاي . وجاء من الشمال اربعة اخوة باتو ولم يحضر هو . وجاء من الايغوريين الامير مسعود بك ومن خراسان الامير ادغون . ومن بلاد الروم السلطان ركن الدين . ومن قيليقية الملك هيتوم . ومن الكرج داود الكبير وداود الصغير . ومن سورية اخو صاحب حلب . ومن بغداد فخر الدين قاضي القضاة . ووفود من الفرنج ومن علاء الدين صاحب آلاموت اعني امام الاسمعيليين حاملي السكاكين .

وكان للخان ثلاثة ابناء يوافقون للمملكة وهم كيوك وكوتان وسيرامون وهو فتى صغير . وكانت أمهم توركينا تريد كيون فوافقها اولاد الملوك كافة . ولما اخذ كيوك كألوف العادة (٤٨١) يستعفي ويقول : ان فلاناً وفلاناً أولى مني اخذوه قسراً واجلسوه على سرير المملكة وجثوا تسع مرات على ركبهم منحنين واخذوا كاساً وشربوه : ولما استقرّ له الملك جعل يتصرف حسناً لانه كان حكيماً محبباً .

(يتبع)